مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

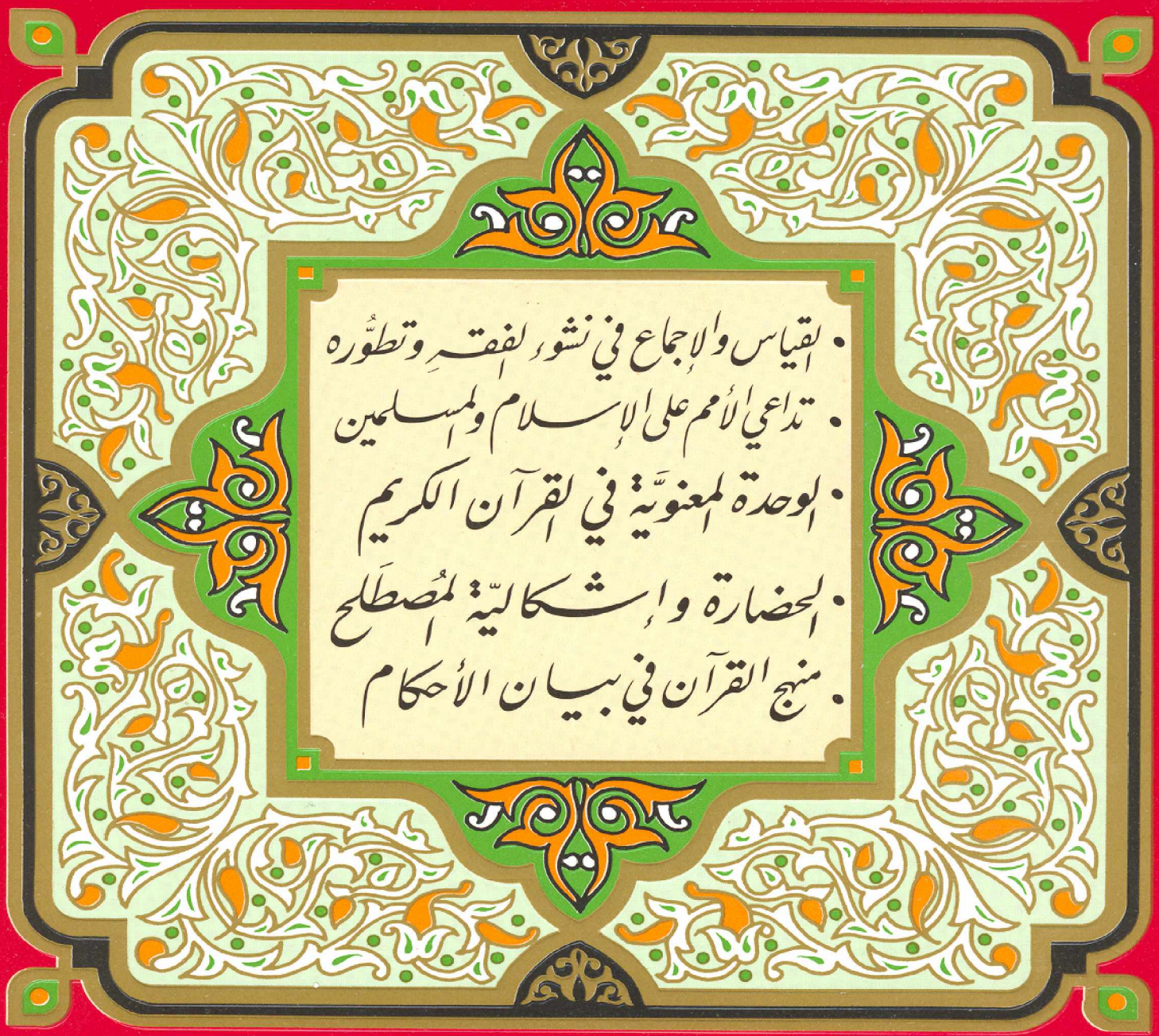

الهجرة والاستقرار للقبائل اليمانية

خلال حركة الفتوحات الأولى في المغرب العربي

د. خليل شاكر حسين الزبيدي
جامعة الفاتح - كلية التربية

توطئة:

رافق استقرار القبائل العربية الفاتحة وخاصة القبائل اليمانية حركة الفتح العربي الإسلامي ومراحله في المشرق والمغرب الإسلاميين. وحيثما استتبت أوضاع الفتح الإسلامي استقرت بعدها القبائل اليمانية في المدن المفتوحة، أو في مدن جديدة اختطها الفاتحون العرب لكي تكون معسكرات دائمة لهم ولعيالاتهم، ومنطلقاً لموجات الفتح القادمة، كما حدث في تأسيس البصرة والكوفة في العراق، وبناء الفسطاط في مصر والقيروان في إفريقية.

ولأول مرة في التاريخ البشري تتفاعل الموجات البشرية الفاتحة مع سكان الأقاليم المفتوحة ليس عن طريق منطق القوة وفرض شريعة الغالب، وإنما كان

لدور التساكن البشري في عملية الاستقرار أثر مهم في وضع الاندماج الاجتماعي، وتلاقح الأفكار وتأثيرها، الأمر الذي أدىٰ إلى قبول السكان الأصليين بأفكار وآراء ومعتقد هذا الفاتح. ولا غرابة أن نرىٰ أن دخول الإسلام وانتشاره في مناطق كثيرة من العالم كان دخولاً ظافراً وموفقاً لا خروج فيه ولا نكوص باستثناء حالة فتح العرب للأندلس واستقرارهم فيها ثمانية قرون ونيّف ونزوحهم عنها مكرهين.

انطلقت قبائل الفتح اليمانية من بلاد الشام نحو البر الإفريقي، وبعد استكمال فتح مصر استقرت القبائل العربية اليمانية عند تأسيس وقيام مدينة الفسطاط. كما استوطنت القبائل الفاتحة في الفيوم والإسكندرية، ويعدُّ هذا الاستقرار الأول من نوعه في البر الإفريقي، وسيكون سابقة ناجحة تتبعها موجات جديدة للفتح نحو برقة وطرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط.

ولمّا اقتضت عملية الحفاظ علىٰ مكتسبات الفتح التي حققها المسلمون في مصر، وبغية تأمين الحدود الغربية لهذا الإقليم، كان لا بُدّ من التوسع غرباً نحو برقة وطرابلس، لأن هذا الصقع يُعدُّ امتداداً طبيعياً لأرض مصر ومكملاً لمتطلبات أمنها الإقليمي. وعلىٰ هذا الأساس انطلقت جيوش الفتح بقيادة عمرو بن العاص السهمي قاصداً إقليم برقة، وهو ما يطلق عليه اسم انطابلس، وكان مكوناً من خمس مُدن. كان الفتح ناجحاً بكل المقاييس إذ إن هذا الإقليم ظل تحت سيادة العرب الفاتحين على الرغم مما مَرَّ من أحداث تاريخية لاحقة.

دخل الفاتحون العرب الأراضي الليبية بنفس القبائل التي ساهمت في فتح مصر يضاف لها ذلك المدد الذي جاء به الصحابي الزبير بن العوام وكان جُلّه من القبائل اليمانية.

إن كان استقرار القبائل اليمانية الفاتحة قد تَمَّ في برقة، فإن عملية الاستقرار في طرابلس كانت هَشَّة وغير ثابتة، ذلك لأن الفتح ومقومات استمراره ونجاحهِ متعلق بمركز الدولة العربية الإسلامية واستقرار الأحوال السياسية فيها.

لم يستتب الفتح الإسلام في طرابلس إلاّ بعد تأسيس مدينة القيروان عام 50هـ على يد القائد عقبة بن نافع الفهري.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها قادة إسلاميون في توطيد الوجود العربي الإسلامي من خلال استقرار قبائل الفتح في المدن الليبية الساحلية والداخلية، والمدن التونسية، إلاّ أن الفضل يعود للقائد عقبة بن نافع الفهري الذي ثبّت الفتح الإسلامي في بلاد إفريقية، وذلك بتأسيس مدينة القيروان التي وطّدت الوجود الإسلامي في شمال إفريقية. بعد هذا الحدث المهم انتشرت اللغة العربية وتعاليم الإسلام، وأصبحت قاعدة لانطلاق الجيوش العربية من تونس، الأمر الذي سيؤدي إلى استكمال فتح كامل تراب شمال إفريقية في ظل القائد حسان بن النعمان الغساني الذي يعد محرر المغرب الأوسط، ومؤسس القاعدة البحرية في تونس، والقائد موسى بن نصير الذي وقع على عاتقه مهمة استكمال فتح المغرب الأقصى، وتخليص هذه الأجزاء من المغرب من الوجود الرومي، الأمر الذي سيؤدي إلى إنجاز عملية عبور الجسور التي تمت عام 92هـ/ 711 إفرنجي والتي بفضلها تمَّ افتتاح شبه الجزيرة الأيبرية، وبقاء العرب المسلمين ثمانية قرون، وبذلك حافظ العرب على إنجازاتهم في عدوة المغرب وباقي أجزاء المغرب العربي.

امتداد القبائل اليمانية في العهد الراشدي:

تذكر المعطياتُ التاريخية المتوافرة في بعض المصادر الأساسية أن معظم جيش الفتح القاصد مصر بقيادة عمرو بن العاص كان مكوناً في غالبيتهِ من قبائل عك اليمانية[1]. وعند حصار حصن بابليون انضم مَددٌ بقيادة الصحابي الزبير بن العوام وكان معظم المدد من قبائل اليمن[2]. وعندما استقرت قبائل الفتح بتأسيس مدينة الفسطاط التي تُعدّ أول مدينة إسلامية في البر الإفريقي، كان

(1) ينظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق الدكتور علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1995، ص77.

(2) ذكر البلاذري أن حجم المدد ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألفاً. ينظر: فتوح البلدان، تحقيق عبد الله الطباع وعمر الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987، ص299.

للقبائل اليمانية حيز مهم في خطط الفسطاط[3]. وحيثما نجحت حركة الفتح العربي الإسلامي في مصر فقد رافقها انتشار في استيطان القبائل اليمانية واستقرارها بهدف توطيد الفتح الإسلامي واستمراره، وتلك سياسة دأبت علىٰ اتباعها الدولة العربية الإسلامية منذ بدء الفتوحات الإسلامية في المشرق العربي، إضافة إلى النتائج الإيجابية التي تفرزها عملية الاندماج السكاني بين الفاتحين وسكان الأقاليم[4]. لم تقتصر إقامة القبائل العربية الفاتحة في حدود مدينة الفسطاط وإنما تعدىٰ ذلك مناطق أخرىٰ اتخذتها قبائل الفتح مستقراً لها مثل الصعيد وخاصة الفيوم والإسكندرية وما حولها[5].

لم يكتف الفاتحون العرب بما حققوه من مكاسب داخل نطاق مصر بل توجهت أنظارهم نحو الأقاليم الغربية الواقعة في الأرض الليبية. والجدير بالذكر أن الأرض الليبية تعد امتداداً طبيعياً لأرض مصر، شأنها شأن بلاد الشام التي لا يمكن فصلها من ناحية الجغرافية السياسية عن مصر. من هذا المنطلق وجد الفاتحون العرب أنه من الضروري التوسع غرباً حفاظاً علىٰ الإنجازات في مصر، زد على ذلك المسؤولية التاريخية المُلقاة علىٰ عاتق العرب في نشر الإسلام وتحرير الإنسان[6].

طبقاً للمرويات التأريخية فإن عمرو بن العاص لم يحاول المجازفة في التوغل بإقليم برقة وما حولها بجيش كبير، إذ إنه اعتمد علىٰ قائد شاب متحمس هو عقبة بن نافع الفهري في مهمة استطلاعية لبرقة وما حولها من مدن.

ويبدو أن قوة الاستطلاع كانت ناجحة في مهمتها الموكلة إليها؛ إذ إنها لم تصادف مقاومة كبيرة، الأمر الذي شجع القيادة العربية في مصر بتحشيد حملة

---

(3) ينظر: ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص144 ـ 145 وما يليها.

(4) ينظر: د. خليل شاكر حسين، دور قبائل اليمن في فتح العراق وتأسيس المدن العربية الإسلامية فيه، بحث منشور في مجلة الدعوة الإسلامية العدد الرابع عشر عام 1997، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية.

(5) البلاذري، فتوح البلدان، ص312 وما يليها.

(6) ينظر: د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982، ص55.

قدّرتها المصادر الأولية بأربعة آلاف مقاتل من عشائر الفتح في مصر[7]. لقد اشتركت في الحملة عشائر مهرة وخولان ولخم ومعافر وحضرموت والصدف اليمانية[8]. بيد أن هذا العدد من المقاتلين إن كان يكفي لتحقيق أهداف الفتح الإسلامي فإنه لا يكفي لعمليات الانتشار والاستقرار الذي يتطلب اندماج الفاتحين بالسكان الأصليين.

تؤكد بعض المصادر الأصلية أن أهل برقة قد رحبوا بالفاتحين العرب لكونهم محررين لهم من ظلم وعسف الحكم البيزنطي وسياسته المالية المرهقة لهم، وذلك دليل علىٰ أن حركة الفتح في صقع برقة لم تلق صعوبات كبيرة[9].

هذا وقد انقسمت القوات الإسلامية الفاتحة إلىٰ جيشين، لكل واحد مهمة مستقلة. يقود الجيش الزاحف نحو مدن الساحل الليبية عمرو بن العاص، وأُنيطت قيادة الجيش القاصد مدن وواحات الداخل إلىٰ عقبة بن نافع، الذي تمكن من فتح فزان وزويلة. ولا شك فإن القيادة العربية كانت تتحرك ضمن خطة عسكرية هدفها تأمين الفتح في الساحل من تحركات مدن الداخل. وقد اكتسبت القيادة العربية خبرة لا يستهان بها جراء حركة الفتوح في المشرق[10] ومصر.

وعلى الرغم من الجدل الذي أثارته بعض الروايات التاريخية حول شخصية القائد العربي الفاتح الذي تحققت علىٰ يديه فتوحات زويلة والواحات الليبية فإن مكان انطلاق جيش الفتح الذي قصد مدن الداخل هو ناحية الفيوم أو

---

(7) ينظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، ليدن، 1951، ص8.
وكذلك ينظر: ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، تونس، 1286هـ، ص22.

(8) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص84.

(9) ينظر: د. إبراهيم بيضون، تكوُّن الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول، دار اقرأ، بيروت، 1986، ص74.

(10) ينظر: إحسان عباس، ليبيا منذ الفتح العربي حتىٰ مطلع القرن التاسع الهجري، بيروت، 1967، ص23.

صعيد مصر، وإن الجيش الفاتح قد سلك طريق الواحات وهو طريق القوافل التجارية[11].

استدعىٰ زحف القبائل العربية الفاتحة علىٰ طول الساحل ابتداءً من برقة حتىٰ طرابلس جهداً كبيراً. ولا سيما أن المسار الجغرافي كان طويلاً وشاقاً بل محفوفاً بمخاطر التعرض لهجمات الأسطول الرومي[12].

إن المعلومات شحيحة حول تفاصيل تحركات الجيش العربي وحيثيات الفتح في المدن الليبية التي دخلتها القوات الإسلامية الفاتحة. وبناءً عليه فإن الأخبار التاريخية تهتم كثيراً بحصار وفتح طرابلس، وإننا نجد ذكر فتح مدن الساحل الليبي وانتشار الفاتحين بها يأتي بعجالة. فالمعطيات التاريخية تؤكد سير الجيش العربي فاتحاً مدن أجدابية وسرت ولبدة حتىٰ ينتهي الخبر بحصار مدينة طرابلس لمدة شهر ثم فتحها عام 23هـ[13].

وانطلاقاً من خبرة المسلمين الحربية توجهت قوة إسلامية نحو مدينة صبراته (سبرت)؛ للوقوف أمام أيّة نجدة نحو طرابلس التي لم تصمد طويلاً أمام إصرار الفاتحين العرب. بعد هذا الإنجاز أصبح الطريق نحو صبراته مفتوحاً؛ حيث باغتتها القوات العربية صباحاً، الأمر الذي مَهّد لفتح ودان، وذلك لتأمين عملية فتح طرابلس. زيادة عن ذلك فإن المسلمين احتاطوا لدرء أي خطرٍ قد يطرأ من المناطق الواقعة في الجنوب الشرقي من طرابلس وودان، وهي المناطق التي أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون العرب حينئذٍ اسم جبال نفوسة. كما فتح العرب مدينة شروس التي كانت إحدىٰ مدن جبل نفوسة الكبرىٰ[14].

---

(11) ينظر: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج1، دار المعارف، الإسكندرية، 1979، ص135.

(12) ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1989، ص193.

(13) ابن الأثير، المصدر السابق، ج2، ص194.

البلاذري، فتوح البلدان، ص316.

اليعقوبي كتاب التاريخ تحقيق عبد الأمير مهنّا م2 مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت 1993 ص49.

(14) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، بيروت، بلا، ت، ص85.

ولم تذكر لنا المرويات التاريخية فعاليات عسكرية للقوات العربية إذ جاءت الأوامر من مقر الخلافة في المدينة بعدم توغل الجيوش العربية في إفريقية (تونس) على الرغم من رغبة القيادة العربية المحلية في الدخول في إفريقية واستغلال حماسة المقاتلين العرب بعد سلسلة النجاحات التي حققوها على الأرض الليبية. غادر القائد عمرو بن العاص أرض ليبيا راجعاً إلى مصر بعد أن عيّن عقبه بن نافع نائباً عنه، متخذاً من سرت مقراً لقيادته. كما ترك الفاتحون حامية في مدينة طرابلس لتأمين السيطرة الإسلامية في هذا الصقع الذي سرعان ما انتفض على سلطة العرب[15].

الموجة الثانية من الفتح:

نحن نميل إلى الرواية القائلة بأن عقبة اتخذ من سرت مقراً لقيادة القوات الإسلامية التي بقيت لضمان النفوذ العربي في الأرض الليبية المفتوحة. ويبدو أن انكفاء عقبة إلى داخل برقة قد حدث بعد انتفاض طرابلس وما حولها على سلطة العرب؛ ذلك لأن القوات العربية التي ذكرت المصادر حجمها كانت غير كافية للانتشار والاستقرار في المدن الليبية كلها، إذ سرعان ما انسحب عمرو بن العاص مع قسم من القوات العربية حتى بدأت حركات الثورة والتململ ضد السلطة العربية الإسلامية. وتأسيساً على ذلك، كان لا بد من جهدٍ عسكري جديد يعيد سلطة الفاتحين إلى هيبتها في النفوس خاصة أمام وجود الروم البحري، الذين كانوا يتحينون الفرص لاستعادة مناطق نفوذهم التي فقدوها على أيدي العرب[16].

عزلت الخلافة العربية عمرو بن العاص عن ولاية مصر واستبدلت به قائداً آخر هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح، الذي لم يكن غريباً عن أرض مصر

---

(15) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، 1857، ص10. ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص200.

حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947، ص75 وما يليها.

(16) البكري، مصدر سابق، ص145.

وفعاليات الجيوش الإسلامية على أرض ليبيا؛ لذا بدأت الاستعدادات العسكرية لحملة بعيدة الأهداف داخل إفريقية حيث كان يدير شؤونها حاكم بيزنطي اسمه جرجير، وكانت مناطق نفوذه تمتد من غرب طرابلس، حتى حدود المغرب الأقصى الشرقية. وقد اتخذ من سبيطلة عاصمة لملكه، وحصَّن المدن الحدودية حتى تكون حاجزاً أمام تقدم جيوش الفتح الإسلامية[17].

استكملت الاستعدادات العسكرية للحملة الموجهة لإفريقية بتشجيع خاص من الخلافة معنوياً ومادياً، إذ هيأت الخلافة كل أسباب الاستعداد القتالي للجنود. وتحركت القوات من المدينة عاصمة الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وعند وصولها مصر أصبحت قيادة كل جيش الحملة لعبد الله بن سعد. وساهم في الحملة أبناء المهاجرين والأنصار، وعلى رأسهم أولاد علي بن أبي طالب. أما القبائل اليمانية فقد اشتركت بعدد وافر من المقاتلين. فقد ساهمت قبيلة ميدعات بتسع مئة مقاتل، وقبيلة غنث بمثلها. واشتركت قبيلة مهرة بست مئة مقاتل. كما ساهمت قبيلة كندة بقيادة الصحابي المقداد بن الأسود، إضافة إلى وجود مقاتلين من قبائل الأزد وجذام، حيث بلغ تعداد جيش هذه الحملة عشرين ألف مقاتل، وهي أكبر قوة تشهدها الأرض الليبية وإفريقية في هذا الوقت، وتحديداً عام 27هـ[18].

انطلقت القوات العربية من مصر متوجهة نحو برقة التي ظلت على موقفها الخاضع للسلطة الإسلامية. وفي إحدى مناطق هذا الإقليم انضم عقبة بن نافع بالجيش الإسلامي الزاحف. وكان عقبة منشغلاً بإخضاع المدن والواحات الداخلية من زويلة وفزان وودان لسلطة المسلمين خلال الأعوام 22هـ - 27هـ[19]. ونظراً لخبرة عقبة بأحوال البلاد الليبية استعان به القائد عبد الله بن سعد في خططه العسكرية وتحركاته. وعدلت الجيوش العربية عن استرجاع مدينة طرابلس لطاعة الدولة العربية الإسلامية وبذلك تفرغت لجهادها مواصلة

---

(17) المالكي، رياض النفوس، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1951، ص11.

(18) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص210 وما يليها.

(19) السلاوي الناصري، الأستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج1، الدار البيضاء، 1950، ص5.

زحفها نحو هدفها المنشود وهو إفريقية. لقد تحاشىٰ الفاتحون المدن المحصنة مثل جرجيس وقابس وبو غراره وسفاقس وقفصة التي تعتبر حاجزاً دفاعياً أمام زحف جيوش الفتح العربية.

لقد نجحت سياسة الاندماج التي اتبعها الفاتحون العرب مع القبائل المحلية حيث أسلم الكثير من أبناء القبائل الليبية وأخلصوا بالمشورة والإسهام القتالي للعرب، وهذا ما شجع الفاتحين العرب على المضي قدماً من أجل تحرير أرض إفريقية من المحتل البيزنطي، واجتناب وجوده المتمثل بقواعده علىٰ أرض المغرب الأوسط والأقصىٰ[20].

التقىٰ الجيش الإسلامي بالجيش الرومي بالقرب من سبيطلة وعلى الرغم من التضارب في الروايات التاريخية حول حجم القوات الرومية، وهو ما تعوّدنا أن نجده في مصادرنا من تضخيم قوة العدو في كل معارك الإسلام الحاسمة سواء في اليرموك أو القادسية أو معركة سبيطلة. ومهما يكن من أمر فإن الذي يهمنا هو النتائج فقد أحرز المسلمون نصراً مؤزراً علىٰ القوات الرومية عام 28هـ. وقد يستغرب المرء إحجام المسلمين في استثمار نتائج هذا الإنجاز الكبير. إن انسحاب القوات الإسلامية من أرض إفريقية بعد الاستيلاء علىٰ مدينة سبيطلة وقمونيه وشروعه في التقدم نحو قرطاجنة وفتحها قد ضيّع جهود المسلمين وتضحياتهم في ضم إفريقية إلىٰ جسم الدولة العربية الإسلامية[21]. ويبدو أن القوات العربية قد تضاءل عددها بسبب خسائر المعارك التي جرت علىٰ أرض إفريقية، زد علىٰ ذلك ورود أخبار إلى المسلمين مفادها أن حشداً كبيراً من جيوش الروم وحلفائهم في المنطقة في طريقه لملاقاة القوات العربية، وتلك مجابهة غير مضمونة العواقب، وبعد مداولات مع أصحاب الرأي من المسلمين اتخذ قرار الانسحاب نحو ليبيا، ومنها إلىٰ مصر دون أن يترك المسلمون حاميات

---

(20) المالكي، مصدر سابق، ص10.

(21) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص211. البلاذري، فتوح، ص318، ينظر كذلك: إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر الأموي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1990، ص73 وما يليها.

أو مسالح في أرض إفريقية المفتوحة. هذا وقد أمضت القوات العربية قرابة سنة وثلاثة أشهر في عمليات الفتح. بيد أن القيادة العربية قد وافقت على عقد الصلح مع القيادة الرومية لقاء مبالغ ومقادير معينة من الذهب[22]. وعلى الرغم من الانسحاب العربي من إفريقية فإن الفاتحين العرب قد استطلعوا البلاد وعرفوا أحوالها، الأمر الذي سيؤدي بالنفع إليهم في مشروعهم المستقبلي في فتح البلاد والاستقرار بها. قفلت القوات العربية عائدة إلى مصر بقيادة عبد الله بن سعد، باستثناء القائد عقبة بن نافع الذي واصل مهمته في إخضاع مناطق زويلة وفزان والواحات، متخذاً من الأرض الليبية مكاناً لتحركاته[23].

بدايات الفتح المنظم والاستقرار:

انشغل المسلمون بحوادث الفتنة التي حدثت خلال الأعوام 35هـ ـ 41هـ التي نتج عنها ارتقاء معاوية بن أبي سفيان لسدة الحكم. وبناءً عليه فإن غياب السلطة الإسلامية أدى بجهود المسلمين نحو الضياع، إذ استغلت بعض قبائل إقليم برقة اضطراب الأحوال السياسية في حاضرة الدولة العربية، فأعلنت عصيانها على السيادة العربية. وقامت طرابلس بثورة ضد النفوذ العربي. وعليه فما إنْ استتبت الأوضاع السياسية لصالح مؤسس الدولة الأموية، حتى صرف اهتمامه لجبهة المغرب لإعادة السيادة العربية في هذه الأصقاع[24]. وبرز في هذه الظروف قائد من أصل يمني هو معاوية بن حديج السكوني الكندي الذي قام بجهود عسكرية من أجل بسط النفوذ العربي في إفريقية. هذا ومهما تواتر من روايات متضاربة حول نشاط هذا القائد العربي من حيث الزمان والمكان، إلاّ أن السياق العام للأحداث يفرض وجود معاوية بن حديج على مسرح الأحداث، وتحديداً منذ عام 45هـ، ذلك لأن المسلمين كانوا منشغلين بإخضاع المدن

---

(22) البلاذري، فتوح البلدان، ص318.

(23) ابن الأثير، مصدر سباق، ج2، ص235.

(24) د. خليل شاكر حسين، الجهود العسكرية للخلافة الأموية في تحرير المغرب، مجلة الهدف جامعة البكر، بغداد، 1989، ص181.

والقبائل المحلية التي نقضت العهد معهم. فقد ذكرت الروايات أن المناطق الواقعة جنوب طرابلس قد رفضت طاعتها لسلطة المسلمين، وحذت لبدة حذو طرابلس وغدامس وودان، وتولى القائدان شريك بن سمي، وعقبة بن نافع، مهمة إرجاع هذه المناطق لطاعة المسلمين. ويتضح مما تقدم افتقار هذه المناطق للوجود الإسلامي الذي يفرض سلطة الدولة العربية، ويفسر هذا أن الفتح كان بهدف إخضاع القبائل المحلية والمدن بشكل آني وسريع، الأمر الذي دفع بالمسلمين إلىٰ إعادة النظر في سياسة الفتح والاستقرار[25].

وعلىٰ أيّة حالٍ فإن البلاد الليبية وإفريقية شهدت قدوم جيش جديد من قبائل الفتح بقيادة معاوية بن حديج خلال عام 45هـ. ويُقدر تعداد هذا الجيش بعشرة آلاف مقاتل على الرغم من الاختلاف الظاهر حول حجم هذا الجيش في مصادرنا المبكرة. وقد اشترك عدد من أبناء الصحابة في هذه الحملة. المهم أن الحملة الجديدة قد اتبعت نفس الطريق الذي سلكته حملة عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد. توغلت الحملة في أرض إفريقية حتىٰ بلغت موضعاً اسمه قونية وهو نفس المكان الذي بُنيت فيه مدينة القيروان. وتمكن الجيش العربي من هزيمة جيش بيزنطي بقيادة نقفور. بعدها اتخذت القوات الإسلامية من القرن موضعاً لإقامة معسكرها. وبغية بسط السيطرة الإسلامية، توجهت حملة بقيادة عبد الله بن الزبير نحو مدينة سوسة. وقصدت حملة أخرىٰ بقيادة عبد الملك بن مروان حصن جلولاء. ونجحت الحملتان في إنجاز مهمتهما بفتح مدينة سوسة وحصن جلولاء. ثم واصلت القوات العربية مسيرها نحو ثغر بنزرت الذي تمّ افتتاحه[26]. وعلى الرغم من الخلط الحاصل في الروايات التاريخية بصدد الحملة علىٰ جزيرة صقلية، واحتمال حدوث الخلط بين أحداث غزو صقلية وغزو جزيرتي رودس وقبرص، فإن النشاط البحري قد طال جزائر المتوسط، خاصة بعد النصر الكبير الذي أحرزه الأسطول العربي علىٰ الأسطول

(25) خليفة بن خياط، كتاب التاريخ، ج1، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بغداد، 1967، ص238.
(26) البلاذري، فتوح البلدان، ص320. البكري، مصدر سابق، ص58.

البيزنطي في الصواري، وبعد اهتمام المسلمين ببناء أسطول بحري يساهم في إنجازات الجيوش البرية[27].

وقد حقق المسلمون إنجازاً بفتح جزيرة جربة عام 47هـ بقيادة رويفع بن ثابت الأنصاري[28]. هذا وتمكن معاوية بن حديج من بناء مدينة في إفريقية كانت مقرّاً سكنياً لقبائل الفتح ومكاناً لانطلاق الجيوش نحو المغرب الأوسط والأقصىٰ[29]. وقد تنبّهت القيادة العربية إلىٰ هذه الحقيقة، ولهذا بدأت مرحلة الفتح المنظم الذي نتج عنه استقرار القبائل العربية واندماجها مع سكان البلدان المفتوحة. ويعود الفضل في اتباع هذه السياسة إلىٰ القائد عقبة بن نافع الذي صرف شطراً كبيراً من عمره في عمليات الفتح الأولىٰ حتىٰ عام 50هـ وهو تاريخ تولية عقبة بن نافع إمارة إفريقية. وتذكر الروايات التاريخية لعقبة بن نافع جهوداً عسكرية كان هدفها إخضاع المدن الداخلية في الأرض الليبية، قبل أن يتحرك بجيشه البالغ عشرة آلاف مقاتل نحو إفريقية. انطلق عقبة من سرت باتجاه غدامس، وكان الجيش العربي يتألف من مقاتلين من القبائل المحلية التي أسلم أهلها، وكذلك من فرقة الفرسان التي رافقت عقبة في تحركاته في مدن الداخل الليبية. يضاف إلى ذلك المدد الذي بعثه الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، ويتكون من قبائل يمانية وغير يمانية، فضلاً عن ذلك الجيش الذي كان مرابطاً في سرت[30]. لقد كانت برقة وزويلة تمثلان قاعدة جيوش الفتح، إلا أن موقعهما الجغرافي البعيد عن مسرح عمليات إفريقية قد جعل القائد عقبة الخبير بالشؤون المغربية يتخذ قرار تأسيس قاعدة للمسلمين في إفريقية؛ إذ أثبتت التجارب السابقة أنَّ طاعة أهل إفريقية مقرونة بوجود العرب بين ظهرانيهم، فإن

---

(27) حسين مؤنس، مرجع سابق، ص126.
كذلك ينظر السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص99 وما يليها.
(28) المالكي، مصدر سابق، ص53.
(29) المالكي، نفس المصدر السابق، ص19 وما يليها.
(30) ابن عذاري المراكشي، مصدر سابق، ص 19 وما يليها.
البلاذري، مصدر سابق، ص320.

خرج العرب أعلنوا العصيان وخرجوا عن الطاعة. والجدير بالملاحظة أن خط سير عقبة كان عن طريق الداخل متحاشياً الحصون والمدن وذلك لمباغتة الروم وحلفائهم[31]. أهمل عقبة المدينة التي بناها سلفه القائد معاوية بن حديج، وذلك لقرب موضعها من البحر، وهذا يعني قربها من خطر الأسطول الرومي. وتوّجب على عقبة أن يختار مكاناً بعيداً عن البحر يتوسط بلاد إفريقية، فوقع اختياره على موضع القيروان الحالية. ابتدأ بناء القيروان منذ عام 50هـ واكتمل عام 55هـ. فقد روعيت في تخطيطها المنشآت الإسلامية والإدارية والسوق ومواضع إقامة القبائل العربية الفاتحة[32].

وبهذا أصبحت القيروان قاعدة إسلامية انطلقت منها جيوش الفتح نحو باقي أجزاء المغرب العربي. ولولا وجود القيروان لما اكتمل فتح المغربين الأوسط والأقصى، ولما انتشر الإسلام والثقافة العربية. ولولا تأسيس القيروان لما توطد الفتح العربي الإسلامي في البلاد الليبية. وبقيت القيروان منطلقاً لكل الفاتحين القادمين بعد عقبة بن نافع ولا سيما أنها توسعت وتطورت عمارتها بسبب قدوم النازحين إليها من سكان القبائل العربية والقبائل المحلية. كان المسلمون يشيدون قاعدتهم الحربية الجديدة، وفي الوقت ذاته كانت حملاتهم تنتشر في طول بلاد إفريقية وعرضها، بغية تحقيق عملية الفتح والانتشار وتوطيد الوجود العربي الإسلامي في مناطق المغرب الأوسط[33]. لقد نقل المسلمون نشاطهم الحربي إلى إفريقية والمغربين الأوسط والأقصى، وبذلك فقد حُسمت مسألة استتباب الفتح واستقرار القبائل العربية في البلاد الليبية، التي أصبحت منذ تأسيس القيروان الظهير الأمني لجبهة المسلمين المتقدمة في تونس، إضافة إلى

---

(31) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص224 وما يليها.
ابن الأثير، مصدر سابق، ج2، ص483 وما يليها.

(32) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص224.
ابن الأثير، مصدر سابق، ج2، ص484،

(33) إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص40.
ينظر كذلك: صالح مصطفى مفتاح، ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1978، ص53.

اعتبار الأرض الليبية ذلك الممر الحيوي الذي لا يستغنىٰ عنه في إمداد جيوش الفتح المتوجهة إلى باقي تراب المغرب. ويمكن القول إن الدور التعبوي الذي قامت به الأرض الليبية كان حيوياً في تحقيق كل الإنجازات علىٰ أرض إفريقية وما يليها من أقاليم، فقد استعان الفاتحون العرب بالأرض الليبية متخذينها خط رجعة في ظروف صعبة حدثت لحركة الفتح في إفريقية والمغرب الأوسط في ولاية عقبة بن نافع الثانية، وفي ولاية حسان بن النعمان الغساني[34].

الخاتمة:

مما تقدم يمكن القول إنّ إنجازات الفتح العربي الإسلامي الباهرة لم تكن لتتحقق لولا جهود القبائل العربية وخاصة القبائل اليمانية. فقد كانت هذه القبائل تشكل الأساس واللب والجوهر للجيوش العربية الإسلامية الفاتحة.

ففي المشرق العربي قامت القبائل اليمانية بدور ريادي في فعاليات الفتوح في جبهة العراق وبلاد الشام ومصر. واعتمدت القيادة العربية علىٰ هذه القبائل في حركة الفتح التي شهدها إقليم برقة. وقد استقرت بعض قبائل اليمن في جبال برقة وما حولها من مدن. وحيثما استقر حال الفتح العربي استقرت القبائل اليمانية في مدن سرت وطرابلس، لكي تشكل الظهير الحامي والإمداد المستمر للجهد العسكري العربي المتوجه للمغربين الأوسط والأقصىٰ. وعندما بنىٰ المسلمون قاعدة جديدة لهم في أرض إفريقية كان للقبائل اليمانية النصيب الأوفر في عملية الاستقرار، ثم الاندماج مع سكان البلاد الأصليين. ولم يقتصر دور القبائل اليمانية علىٰ المساهمة العسكرية في ميادين القتال، بل تعدىٰ ذلك إلىٰ عمليات بناء المدن الإسلامية، وبناء القوة العسكرية، وخاصة الأسطول الإسلامي. يضاف إلىٰ ذلك تلكم الجهود التي صرفتها القبائل اليمانية في عملية الاندماج مع سكان الأقاليم الأصليين من خلال التساكن والتلاقح الفكري

---

(34) اليعقوبي، مصدر سابق، م2، ص197.
خليل شاكر حسين، الجهود العسكرية للخلافة الأموية في تحرير المغرب، ص195 وما يليها.
البلاذري، مصدر سابق، ص320 وما يليها.

والتمازج العقائدي. لقد نجح الإسلام العظيم في توظيف الطاقات القتالية للقبائل العربية، وذلك بحقنها بالإيمان، وشحنها بدافعية البذل والعطاء والتضحية، وهو إنجاز لم يحققه دين أو معتقد قبل الإسلام. وتتوج ذلك الإنجاز بتأسيس دول مترامية الأطراف قائمة على نظم أخلاقية ودستور سماوي. وما زال سر هذا الإنجاز، وبخاصة حركة الفتح العربي الإسلامي، تثير فضول الباحثين من عرب وأجانب. ومهما قيل من تفسيرات حول هذا الإنجاز الخالد، فإن الفضل للعقيدة الإسلامية التي وحّدت شتات القبائل العربية ووجهتها نحو أهداف إنسانية عظيمة ما زالت محط تقدير الباحثين والدارسين واهتمامهم.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية:

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1989.
- البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، 1857.
- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987.
- خليفة بن خياط، كتاب التاريخ، ج1، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بغداد، 1967.
- ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، تونس، 1286هـ.
- السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ج1، الدار البيضاء، 1950.
- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق: دكتور علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1995.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، تحقيق: ليفي بروفنسال وكولان، ليدن، 1951.
- المالكي، رياض النفوس، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1951.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، بيروت. بلا. ت.
- اليعقوبي، كتاب التاريخ، تحقيق: عبد الأمير مهنا، ج2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1993.

ثانياً: المراجع الثانوية

- إبراهيم بيضون، تكوُّن الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول، دار اقرأ، بيروت، 1986.
- . . . . . ، الدولة العربية في إسبانيا، دار النهضة العربية، بيروت، 1986.
- إبراهيم حركات، السياسية والمجتمع في العصر الأموي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1990.
- إحسان عباس، ليبيا منذ الفتح العربي حتىٰ مطلع القرن التاسع الهجري، بيروت، 1967.
- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947.
- خليل شاكر حسين، دور قبائل اليمن في فتح العراق وفي تأسيس المدن العربية الإسلامية فيه، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الرابع عشر، طرابلس، 1997.
- . . . . . ، الجهود العسكرية للخلافة الأموية في تحرير المغرب، مجلة الدفاع، جامعة البكر، بغداد، 1989.
- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج1، دار المعارف، الإسكندرية، 1979.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1982.
- صالح مصطفىٰ سالم، ليبيا منذ الفتح العربي حتىٰ انتقال الخلافة الفاطمية إلىٰ مصر، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1978.